آليات السخرية في شعر عبد الله البردُّوني

The ironic Mechanisms in Abdullah Al-Bardawni's Poetry

محمد مزليني[1*]، نعيمة زواخ [2] ، ليلى قاسحي [3]

[1] جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، **mohamed.mezlini@univ-alger2.dz**

[2] المدرسة العليا للأساتذة الشيخ مبارك الميلي – بوزريعة (الجزائر)، **nzouakh@hotmail.fr**

[3] جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، **nzouakh@hotmail.fr**

تاريخ الاستلام: 2021/11/25 تاريخ القبول: 2021/12/27 تاريخ النشر: 2022/06/05

ملخص:

تعد السخرية من أرقى الوسائل الأدبية النافذة التي يلجأ إليها الأديب بغية استقطاب جمهور المتلقين، وجعلهم يتقبلون الرسالة المتضمنة بل ويستمتعون بها، وغالبا ما تكون حاملة هدفا تربويا محمودا أو نقدا سياسيا لاذعا يعري الواقع المزري، ويفضح العيوب المزينة بألوان الكذب والنفاق.وهو أسلوب استطاع –بفضل ما يملكه من قوة تأثيرية– أن يتسرّب إلى أنواع شتى من الفنون القولية وغير القولية (كالشعر والمسرح والرسم الكاريكاتوري ...إلخ).

ولما كان الشعر أبرز الفنون القولية وأكثرها تقبلا للسخرية والتهكم نال الحظ الأوفر من التأليف والدراسة، ولعل أبرز الشعراء المحدثين الذين اشتهروا به، وتفننوا في استعمال أساليبه؛ الشاعر اليمني عبد الله البردّوني في قصائده السياسية المعروفة بثورتها على أنظمة الحكم المستبدة.

ومن أجل ذلك حاولنا تسليط الضوء على أهم الأساليب الساخرة التي ميّزت شعره، وعلى دورها الكبير في دفع عجلة الشعر العربي نحو التجديد.

كلمات مفتاحية: آليات، الأساليب الساخرة، الشعر العربي، القصيدة السياسية

*المؤلف المرسل: محمد مزليني

Abstract:

Irony is one of the most effective literary strategies that the writer uses it, to attract the audience, and makes them accept the message and enjoy it. Almost it holds an educational goals or political satirism, for revealing the horrible reality. This style full with its influencial power was able to infiltrate various types of verbal and non-verbal arts (such as poetry, caricature,..). As well as the poetry was the most prominent verbal art and the most receptive to irony it had the most part of writing and studying, and perhaps the most prominent modern poets who became famous for it irony style the Yemeni poet Abdullah Al-Bardouniin his political poems known for its revolution against dictatures and unjust regimes. For this reason, we aim to treat the most important satirical styles that distinguished his poetry and their great role in pushing the wheel of Arabic poetry towards renewal.

Keywords :mechanisms ;satirical (ironic) methods ;Arabic poetry ;political poem.

تمهيد:

تعد السخرية فنا قائما بذاته، اقترن وجوده بالإنسان، ولازمه ملازمة الظل لصاحبه، بوصفه قبل كل شيء متنفسا له يعبر من خلاله عن عدم رضاه عن واقعه المعيش؛فأقصى غاياته من رواء استخدام هذا الأسلوب التعبيري، هو تغيير هذا الواقع على جميع الأصعدة الاجتماعية منها والاقتصادية والسياسية وحتى الفكرية والثقافية.. ولا تقتصر السخرية على فرد بعينه أو جماعة بعينها، كما أنها لا ترتبط بأمّة أو بتاريخ أو بحضارة، بل تمتدإلى أبعد من ذلك، ومن خصائصها الاستمرارية والتجدد بتجدد الحياة.

1.مفهومالسخرية

1.1لغة:

تقول العرب " سخِر منه وبه سخِر، وسُخرا بالضم، وسُخرة وسِخريا وسُخريا وسُخرية: هزئ به (...) يقال: سخرت منه ولا يقال: سخرت به (...)، وقال الأخفش: سخرت منه، وسخرت به، وضحكت منه، وضحكت به كلّ يقال"،(ابن منظور، 2008، صفحة 1682) أما في تاج العروس فتدور معانيه في فلك الضحك والتندر والهزئ والعجب من الآخر(الزبدي، د.ت). فمن خلال هذه التعريفات اللغوية يتضح أن المعنى اللغوي للسخرية ينحصر في التحقير والاستهزاء بالآخر (فردا كان أم جماعة)، والحط من معنوياته.

1.2 اصطلاحا :

يعتقد كثير من الناس بأن السخرية ذات طابع سلبي، وهي فعلا كذلك إذا تعلّق الأمر بالسخرية بوصفها سلوكا اجتماعيا غير أخلاقي، لما فيه من هدم للآخر وتقليل من شأنه وتحقيرٍ لذاته.

لكننا بصدد الحديث عن اللون الأدبي الذي ينتهج السخرية فنا وأسلوبا في نقد المظاهر الاجتماعية السلبيةوالأوضاعالمتردية السائدة، من خلال إظهار مواطن الخلل والفساد، بواسطة اللغة الساخرة الممزوجة بروح الدعابة، من ثم نلاحظ هذا التحول المفارق لوظيفة السخرية من عامل هدم في حقل المعاملات، إلى فن يهدف بدرجة كبيرة إلى إصلاح المنظومة الحياتية.

لقد عرّف الأدباء والفلاسفة الغرب والعرب السخرية كلٌّ من منطلقاته، فرأى أرسطو أنها "الاستعمال المراوغ للغة وهي عنده من أشكال البلاغة، ويندرج تحتها المدح في صيغة الذم والذم في صيغة المدح"(أرسطو، 1986، صفحة 34)

وترتكز السخرية عند أرسطو على صياغة الجمل بلغة مكثفة دلاليا من قبل شخص بليغ في استعمال تراكيبها وأساليبها قصد الوصول إلى الغاية من خلال تقنية التخفيواللامباشرة في استعمال اللغة بغية إيصال الرسالة المرجوة بأسلوب ساخر.

و" السخرية عند باسكال قلب المعاني بنقائضها دون الوصول إلى كنهها وجوهرها في جميع الأحوال"(sareil , 1984, p. 02)

وقد يستشف الإنسان عيوب الآخرين إذا صورها في قوالب هزلية ساخرةلغايات تقويمية، وتجلى هذا بكثرة في الخطاب القرآني الموجّه إلى الكفار والمشركين من باب التعريض بهم، ونجد هذا في قوله تعالى ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾،[الدخان: 49] ففي هذه الآية تهكم بالمتكبرين الذين كانوا يجحدون نعم الله ويكفرون بها، وكانوا يستعلون في الأرض ظانين أنهم الأعزاء الكرماء، ولذلك جاءت دلالة السخرية (العزيز الكريم) المقترنة بعذاب الآخرة، مفارقة مناقضة لما رأوه عزة وكرامة أيام نعيم الدنيا. قال القرطبي: "وهو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص، أي قال له: إنك أنت الذليل المهان، وهو كما قال قوم شعيب لشعيب: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[هود: 87] يعنون السفيه الجاهل على أحد التأويلات على ما تقدم"(القرطبي، 2006، صفحة 135)

كما أن السخرية نوع من أنواع تفريغ الطاقة السلبية " فمنذ آلاف السنين يقاوم الحيوان الخطر ويتصدى له، فإما أن يبقى حياً أو يموت، أما الإنسان فبعد نجاته من حادث مميت يحوّل ذلك الإحساس بالخطر والخوف إلى ضحك حتى لا يتأثر سلبيا "(sareil , 1984, p. 02)، ذلك أننا قد نسخر من ذواتنا في قالب ضاحك حتى نقلل من حدة الصدمات المتوالية التي قد تصيبنا نتيجة الأخطار المفاجئة، أو الهجمات المباغتة التي تهدد حياتنا.

ولطالما كانت السخرية أسلوبا من أساليب الردع الفطرية التي نشأت وترعرعت مع الإنسان، كما أنها تنمّي روح الجماعة بين الناس وتوحد صفوفهم وتلم شملهم لأن سخريتهم رفض لكل ما يمس ويخل بنظمهم الجمعية.

" فالسخرية إذن يمكن أن تكون أسلوبا في الإقناع والاحتجاج إذا استعملت الاستعمال الصحيح والسليم بحيث تخاطب العقل، وليس المشاعر والأحاسيس، وقد سعت إلى تحقيق النفع وليس حصد العداوة "(الكدالي، 2018، صفحة 49).

كما أنها ليست بمعزل عن المفاهيم الأخرى التي تدور في فلكها وتعمل عملها وتسعى إلى الإصلاح والانتقاد، فأحيانا تختلف الوسائل والغاية واحدة.

أما الساخر فهو" الشخص الذي يمارس نمطا من التفكير الناقد المستهزئ بالحالة التي يعيشها من أجل الكشف عن تناقضها ومفارقتها وإبراز عيوبها، سواء كان بأسلوب عفوي أم قصدي أم فلسفي أم أدبي، فالممارسة الساخرة هي تذمر واضح من حالة سيئة"(عباس، 2016، صفحة 25)، وهذا ما يتضح جليا في الأدب عموما والشعر السياسي خصوصا؛ إذ إن الشاعر يكون مقيد الحركة، مراقبا من قبل عيون السلطة، فهو بين مطرقة الالتزام وانتقاد الواقع وسندان الحاكم وعقوباته، فيلجأ إلى التخفي وراء ستار القوالب الهزلية الساخرة لتعرية العيوب." والسخرية من أقسى أنواع الفكاهة تهكما، كما أنّ شخصية الساخر لا تتأثر بالحوادث التي من حوله، فهو ذو طبيعة باردة في التصرف مع من حوله من أفراد المجتمع الخارجين عن القوانين الطبيعية والعرفية ".(Alberes, S.D, p. 03)

وعادة ما يرتبط هذا الفن بأديبمتّقد الحس، مرّ بفترات صعبة وقاسية في حياته. ولا يعني ذلك أنه لا يوجد أدب ساخر يحمل في طياته مقاصد خبيثة بعضها قد يمس بالقيم وبعضها الآخر يتضمن رسائل إيديولوجية معيّنة؛ يقول شوقي ضيف: "إنّ السخرية أرقى أنواع الفكاهة، لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر وهي لذلك أداة دقيقة في أيدي الفلاسفة والكتّاب الذين يهزؤون بالعقائد والخرافات ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم، وهي حينئذ تكون لدغا خالصا، وقد تستخدم في رقة، وحينئذ تكون تهكما إذ يلمس صاحبها لمسا رقيقا "(شوقي ضيف، د.ت، صفحة 111).

2. آليات السخرية في شعر عبد الله البردّوني:*

سخِر عبد الله البردوني من كل شيء كان يحيط به بدءا من الذات، مرورا بالسلطة، وصولا إلى المجتمع اليمني الذي ترعرع بين أحضانه فقد كان – كما قال بنفسه – " أعمى داخل وطن أعمى".(الجنيد و الأطرش، 2020)

1.2 مفارقة العناوين :

*هو عبد الله صالح الشحف البردّوني، معري اليمن، شاعرها وابنها البار، رهين المحابس، مجدد القصيدة العمودية وأحد أعلامها في العصر الحديث، ولد وعاش ببردّون في ذمار، أصيب بالجذري في الخامسة من عمره وتبعه الربو والسمنة ومرض القلب.

تعدّ المفارقة من الأساليب الساخرة التي ترتبطفي كثير من الأحيان باللبس والتعقيد، وهي ترتكز"أساسا على تحقيق العلاقة الذهنية بين الألفاظ أكثر مما يعتمد على العلاقة النفسية أو التشكيلية، وهي لا تنبع من تأملات راسخة ومستقرة داخل الذات، فتكون بذلك ذات طابع غنائي أو عاطفي، ولكنّها تصدر أساسا عن ذهن متوقد، ووعي شديد للذات بما حولها".(نبيلة إبراهيم، د.ت، صفحة 134)

فالمفارقة هي اجتماع نقيضين لا يجتمعان عادة، ما يبعث على الإحساس باللامنطق عند المتلقي، إلا أن هذه المفارقة لها أهدافها هي الأخرى من وراء هذا الصنيع، تتمثل في سعيهاإلى تعرية الواقع وكشف المستور وشحن الهمم، وإلى التخلي عن المعتقدات البالية التي ترسّخت في الضمائر الجمعية، وأصبحت جزءا لا يتجزأ من حياتهم اليومية.

والمفارقة تقنية يُأتى بها " لتأكيد التفريق على وجه التضاد، وتكرير اللفظ يدل أولا على توهم التماثل فيما تعلق به، فإذا اختص كل من اللفظين بما ارتبط به تمت المفارقة وزاد التبيين، لما هو مغروس في النفس والطبع من حب الموازنة". (نبيلة إبراهيم، د.ت، صفحة 134)

يولج النص من خلال العنوان؛ إذ يعد العتبة الأولى في فهم النص الأدبي وتأويله، بما يحمله من ملامح تنم عن تفاصيله ومقاصده، غير أن الناقد أو القارئ الأوّلي للنص الأدبي _ بما في ذلك القصيدة _ قد يصطدم ببعض العراقيل التي تَحُول دون فهمه العنوان، لاسيما إذا صيغ بأسلوب مفارق يجمع بين المتناقضات مما يصعّب مأمورية الفهم، ويحدث قطيعة آنية بين المتلقي والنص سرعان ما تزول بعد قراءة المتن ، نظرا لخصائصها البلاغية التي تعتمد المراوغة والالتواء، وكثافتها الدلالية، فإنها تجلب الانتباه وتشحن الذهن وتثير فضول القارئ.

اتسمت قصائد "عبد الله البردّوني" بالتنويع في استخدام هذا الأسلوب الفني الساخر لإيصال رسائله التي تبتغي نفض الغبار عن واقع المجتمعات العربية عموما وواقع المجتمع اليمني خصوصا،حتى أضحت صبغة تطبع أشعاره فلا يخلو منها ديوان، وأولى هذه القصائد التي يطالعك عنوانها على جانب من السخرية المفارقة ؛ قصيدة " عازف الصمت " وتتجلى المفارقة في هذا العنوان في مناقضة الصمت لطبيعة

العزف؛ بما أنه أصوات تصدر من آلات موسيقية أو ما شابه ذلك، فلا يمكن للعزف إلا أن يكون مصوّتا، فجاء العزف والصمت كلّ منهما بمثابة الطباق للآخر لما في الأول من حركة تصحبها أصوات، ولما في الثاني من سكونية تقتضي انتفاء الصوت. ويبدو أن البردّوني جاء بالمتناقضين ليبين حقيقة مرة مفادها إنما الصمت هو صمت الشعوب المستضعفة على ما يمارس عليها من استدمار وإذلال، الخانعة لجبروت الحكام وظلمهم، ولعل الصمت أقل ما توصف بها،ذلك أنها فوضت أمرها لمن لا خير فيه، ومدت رقبتها لجلادها، والذي ينحني مرة يسهل عليه الانحناء،لأن الشعوب النابضة بالحرية والكرامة لا تقبل أنصاف الحكّام ولا تخضع لهم، بل تعزف لهم لحن الثورة وتقرع لهم طبول التمرد، وتنزع عنهم جلابيب المكر والخداع، دون أن تلتفت إلى رياح المساومة والابتزاز.

إن مزاوجة الشاعر البردّوني لهذه الألفاظ المتنافرة تركيبيا، جعل العنوان ذا طابع بلاغي، ينم عن جرأة تخالطها مشاعر الأسى والمرارة.

" إن الأشياء التي نفهمها تكون أكثر فهما واستيعابا حينما تأتي بالضد "(بعير الأسدي، 2007، صفحة 208) وهذا ما يتجسد في عنوان قصيدة أخرى: " عام بلا رقم "، ولا يخلو هذا العنوان –كما هو ملاحظ–من مفارقة لفظية ساخرة، فهو ذو طابع تلميحي يريد الشاعر من ورائه بث شكواه من زمن مضى وعمر انتقص دون أن يسجل أي إنجاز.

فمثل هذه العناوين المفارقة واسع الانتشار في الأعمال الشعرية والروائية " ولعل السبب في ذلك يكمن في قوتها التصويرية حيث تأخذ معنى التلميح وهي مناسِبة لوصف الأشخاص دون التصريح بذلك خاصة في معرض السخرية والانتقاص ويكون الهدف التحقير "(بولنوار، 2019، صفحة 84) فالأعوام رمز لدولة اليمن التي بلغ الفقر فيها والمجاعة حدا لا يطاق، فلئن عرفت جاراتها تقدما وازدهارا، فإن اليمن تجمدت سنواتها وتشتت مساعي شعبها وقادتها، وسالت الدماء باسم الدين والحزبية، وعُتّم على البلد، فصار بلا هوية، بلا أرقام، بلا أمل بلا مدنية ولا بنية تحتية، أما النتاج الثقافي _ سلاح المثقفين الوحيد _ صار حكرا على السلطة، وأصبح الكاتب لا ينشر ما يريده هو بل ينشَر له ما يراد.

لقد طمست معالم اليمن الحضارية والتاريخية، وغيّبت كل الإرادات الطامحة في التغيير، وشرد الأفراد والجماعات باسم الدين، لكن المفارقة الأكبر من تلك العناوين كلها، تكمن في وسم البلدبـ " اليمن السعيد"، وهي التي لم تعرف السعادة منذ عقود طويلة.

2.2 التَكـــرار:

تعد تقنية التَكرار من أهم تقنيات السخرية ومن أكثرهم نجاعة في محاجّة المتلقي ودفعه إلى الاقتناع بمضمون الرسالة الخطابية، شريطة أن توضع الألفاظ المكررة في القصيدة وفق مقاييس بلاغية دقيقة ومضبوطة حتى تؤدي المهمة المنوطة بها.

" والتكرار هو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى: والمراد بذلك تأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد أو الإنكار أو التوبيخ أو الاستبعاد أو أي غرض من الأغراض "(بدوي طبانة، 1988، صفحة 543)

ولا يشترط أسلوب التَكرير الساخر إعادة الألفاظ بعينها حتى تتحقق الأهداف، بل يمكن أن تؤدي المواقف المتكررة وظيفتها هي الأخرى دون اللجوء إلى القاموس اللغوي، ومن أمثلة التكرار قول ابن الرومي منتقدا أحد خصومه ومستهزئا به(ابن الرومي، 2002، الصفحات 53-54):

لـــو تلفقـــت في كســـاء الكســـائي وتلبســـــت فـــــروة الفـــــرّاء

وتخللـــــت بالخليـــــل وأضـــــحى ســـــبويه لـــــديك رهـــــن ســـــباء

وتكونـــــت مـــــن ســـــواد أبي الأس ود شخصـــــا يكـــــنّى أبى الســـــواد

لأبى الله أن يعـــــدل أهـــــل العـــــل م إلا مـــــن جملـــــة الأغبيـــــاء

ولقد تفنن شاعرنا عبد الله البردّوني في توظيف أسلوب التَكرار قصد تمرير رؤيته الساخرة مؤكدة ومدعمة،ذلك أن تَكرار ألفاظ بعينها – لاسيما في النصوص الشعرية-أبلغ من التصريح بالمعنى المراد، يقول في قصيدة " الغزو من الداخل"(البردوني، 2009، صفحة 650):

غـــــــــزاة لا أشـــــــــاهدهم وســـــيف الغـــــزو في صـــــدري
وهـــــل تـــــدرين يـــــا صـــــنعا مـــــن المســـــتعمر السّـــــري ؟
فقـــــــد يـــــــأتون تِبغـــــــا في ســـــــجائر لونهـــــــا يغـــــــري
وفي صـــــــدقات وحشـــــــيٍّ يـــــــؤنس وجهـــــــه الصـــــــخري
وفي أهـــــــداب أنثـــــــى، في منـاديـــــــل الهـــــــوى القهـــــــري
وفي ســـــــــروال أســـــــــتاذ وتحـــــــت عمامـــــــة المقـــــــري
وفي أقـــــــراص منـــــــع الحـــــــم ل في أنبـــــــوب الحـــــــبر
وفي حريـــــــــة الغثيـــــــــا ن في عبثيـــــــــة العمـــــــــر
وفي عـــــــود احـــــــتلال الأم س وفي تشـــــــكيله العصـــــــري
وفي قنينـــــــة (الويســـــــكي) وفي قـــــــارورة العطـــــــر

كثف الشاعر من الدلالات من خلال استعمال كلمات توحي برمزيات متعددة، لكن تكريره حرف الجر " في" جاء خادما أغراضا حجاجية تثبت من خلال وظائفها النحوية كالظرفية والسببية والاستعلاء والموازنة، بعض الدلالات الخفية المستوحاة من تلك الوظائف، كون الصورة التي يريد الشاعر رسمها تتجانس مع معاني حرف الجر، وتأويل ذلك أن الغزو الخارجي يسعى بشتى الوسائل لكبح جماح المقاومة اليمنية، ويسعى لتثبيط عزيمته من خلال دس السموم وزرع الفتن وإغراء الشباب، فيأتون في حلة المعلم الذي يسعى إلى تطوير المجتمعات المتخلفة، والحقيقة أنهم ينشرون ثقافة مزيفة وفكرا ماجنا، ورؤى استبدادية، وعبارة (أقراص منع الحمل) إشارة إلى إشاعة الفاحشة، فهم يغيّبون العقول ويصرفون الأنظار عن القضايا الكبرى إلى قضايا هامشية حتى يُزرع في هذا الشعب الوهن والخذلان.

أراد الشاعر من خلال هذا التكرار أن يصور حالته وحالة شعبه النفسية والوجدانية المتخمة بالجراح والمآسي لعلّ العقول تستيقظ و تنتبه إلى خطر المتربصين ببلاده وقومه، لأنهم يتستّرون في أزياء بهية وطلعة تسر الناظرين، حالهم كحال المنافق الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر، و نلمس هذا المعنى من استخدامه لكلمات ترمز إلى زيف الحضارة الغربية من قبيل (قنينة الويسكي) المغيبة للعقول الواعية و(قارورة العطر)

المغرية للنفوس الطاهرة، ومن ثمّ جاءت حروف الجر المكررة هنا تعضد قالب النص التهكمي باعتبار التهكم" أسلوبا يعبر عن الشعور بالتعالي ممتزجا بالبغض وحب الانتقام في بعض الأحيان، ولهذا يغلب أن نراه قائما على التكرير ليكون أشفى لنفس القائل وألذع لنفس المتهكم به" (علي السيد، د.ت) وهذا هو القصد من وراء هذه الأبيات حيث أراد الشاعر أن يشفي غليله بتفجير بركان الغضب الذي يشعر به إزاء الوضع الذي تعيشه الأمة، بواسطة أسلوب ذكي ضمنه آراءه، لعلها تجد آذانا صاغية، وأفئدة واعية.

كما نجد عبد الله البردوني يفجر كل طاقاته ويطلق العنان لأحاسيسه في قصيدته " صنعاء.. الموت والميلاد " التي راح يسرد فيها أوجاعه، وينبش في تاريخ اليمن لعله يجد شيئا يخفف عنه وطأة الغربة ووحشة السجون؛ سجون العمى والحبس وتخلف المجتمع الذي يحيا بين ثناياه، ونلاحظ أن تقنية التَكرار حاضرة بقوة في هذه القصيدة، حيث عملت على تكثيف دلالة السخرية من الزمن والأقدار، يقول فيها(البردوني، 2009، صفحة 556):

ولـــــدت صـــــنعاء بســـــبتمبر كـــي تلقـــى المـــوت بنـــوفمبر
لكـــــن كـــــي تولـــــد ثانيـــــة في مـــــــايو أو في أكتـــــــوبر
في أول كـــــــانون الثـــــــاني أو في الثـــــاني مـــــن ديســـــمبر
مـــا دامـــت هجعتهـــا حبلـــى فولادتهـــــا لـــــن تتـــــأخر

جاء الشاعر في هذه الأبيات بتكرار مغاير لما عهدناه في النماذج السابقة، حين قرن هذا التكرير اللفظي بأسلوب المفارقة؛ فاستطاع بموهبته الفذة أن يوظف كلمات القاموس العادية ويضفي عليها أبعادا شعرية، فإن كانت قصائده تلتقي مع قصائد القدامى في البنية الخارجية فإنها تختلف عنها كل الاختلاف من حيث الروح الشعرية، والأغراض المستحدثة، بالإضافة إلى الدراما المسرحية التي لا تكاد تخلو منهادواوينه.

يظهر تكرار المفارقة الساخرة من عنوان القصيدة؛ إذ ترد كلمتا الموت والحياة في قاموس البردوني بالدلالة نفسها، الأمر الذي فرضته عليه الأوضاع اليمنية التي تنبعث في كل زاوية منها روائح الدم وتتجسد صور التعذيب والنهب والسطو والاستبداد، بل قد يكون الموت راحة وخلاصا من ليل واقع طويل

وحالك تتساوى فيه الأشهر وتتماهى فلا يُسأل عن أيامها ولا يُلتفت إلى أسابيعها، فهي عند البردوني سواء، كأنها رقم تزين طريق العام المليء بالمرارة والأسى، ذلك أن السنين والتجارب أظهرت أن الطغاة لا يلدون إلا طغاة أمثالهم، ولا يورّثون غير الوحشية والقمع، وكأن اليمن لا تحبل إلا بهم، ولا تلد غيرهم، وإن كان بصيص الأمل حاضرا في آخر بيت بميلاد جديد ويوم مشرق: "ما دامت هجعتها حبلى فـولادتهـا لـن تتأخر"، بعد سنوات عجاف أتت على الأخضر واليابس، الجديد والبالي، القاصي والداني فلم تخلّف وراءها سوى الدمار والتشريد، والأبيات في مجملها تشير إلى الحروب القبَلية والطائفية وإلى الانقسامات التي تعرض لها اليمن فأدت إلى خرابه .

3.2 التصوير الكاريكاتوري:

يقوم التصوير الكاريكاتوري على التلاعب بمقاييس الأشياء، فيعطيها حجما لا يتناسب بتاتا مع ماهيتها في شكلها العادي، وذلك بغية إبراز العيوب وإظهارها على السطح حتى يتم انتقادها وفق مقتضيات الساخر.

" إن كل تشوه قابل لأن يقلده شخص سليم يمكن أن يصبح مضحكا أو ساخرا، وهنا نفهم المضحك في الكاريكاتوري، فالهيئة مهما انتظمت، ومهما انسجمت خطوطها ومرنت حركاتها، لا يمكن أن يكون التوازن فيها تاما تماما مطلقا، ففيها أبدا نذير باعوجاج، وإيذانٌ بجعدة، أي فيها تشوه ما (...) وقد نسرف في المبالغة إلى غير حد ثم لا نحصل على صورة كاريكاتورية حقا، فلكي تكون المبالغة مضحكة، ينبغي ألاّ تبدو غاية بل وسيلة يستخدمها الفنان ".(برغسون، د.ت، الصفحات 23-24)

ومعنى هذا أن التصوير الكاريكاتوري هو أداة إصلاحية تطهيرية تبرز العيوب والنقائص البشرية وتهاجمها، كثيرا ما اعتمد عبد الله البردّوني هذا الأسلوب الساخر في خطاباته الشعرية، فكان يصف دون إسراف الأوضاع والأحداث بعبارات استعارية وكلمات رمزية تؤدي الرسالة المبتغاة فتصيب المرمى،يقول في قصيدته " بعد سقوط الماكياج "(البردوني، 2009، صفحة 725):

غـــير رأســـي، أعطـــني رأس (جمـــل) غـــير قلـــبي، أعطـــني قلـــب (حَمَـــل)

ردّني مـــا شـــئت ..(ثـــورا)، (نعجـــة) كـــــي أسمّيـــــك يمانيـــــا بطَـــــل
كـــــي أسميـــــك شـــــريفا أو أرى فيـــك مشـــروع شـــريف محتمـــل
ســـقط المكيـــاج، لا جـــدوى بـــأن تســـتعير الآن وجهـــا مفتعـــل

يسخر البردوني من واقع المجتمع اليمني، انطلاقا من ذاته التي يستعير لها صفات غير صفاتها ويلبسها أشكالا لا تتناسب مقاييسها مع مقاييس هذا الرجل المتمرد الثائر على حاكم يطمس معالم شعبه بالقهر والتجويع، ولا يريهم إلا ما يرى ، فهم عنده كقطيع الأغنام التي تساق إلى المذبحة دون مساومة (جمل، حمل، ثور، نعجة)، بينما يسعى إلى طمس الحقائق وتلميع صورته في عيون العالم وحجب سنوات الدموية عنها بواسطة الشعارات الكاذبة والخطابات الرنانة، غير أن الأقنعة لم تلبث أن سقطت: (سقط الماكياج)، أما نفوس الشرفاء الذين يمثلهم البردوني فيتشبثون بآرائهم الحرة، ويتمسكون بمبادئهم، ويرفعون راية العصيان وإن كلفهم ذلك حياتهم، تلك الحياة التي أضحت محاصرة ومراقبة متى حلت وحيثما ارتحلت، وهذا النهج يتأكد في قصيدة " سندباد يمني في مقعد التحقيق " التي يقول فيها(البردوني، 2009، صفحة 727):

كمـــا شـــئت فـــتش .. أيـــن أخفـــي حقـــائبي أتســـألني : مـــن أنـــت ؟ أعـــرف واجـــبي
أجـــب، لا تحـــاول، عمـــرك، الاســـم كـــاملا ثلاثـــون تقريبـــا، (مثـــنّى الشـــواجبي)
نعـــم أيـــن كنـــتَ الأمـــس ؟ كنـــت بمرقـــدي وجمجمـــتي في الســـجن، في الســـوق شـــاربي
رَحَلـــت إذن .. فـــيم الرحيـــل ؟ أظنـــه جديـــدا أنـــا فيـــه طريقـــي وصـــاحبي
إلى أيـــن ؟ مـــن شـــعب لثـــان بـــداخلي مـــتى ســـوف آتي، حـــين تمضـــي رغـــائبي
جـــوازا ســـياحيا حَمَلـــت ؟ .. جنـــازة حملـــت بجلـــدي، فـــوق أيـــدي رواســـبي
مـــن الضـــفة الأولى رحلـــتُ مهـــدّما إلى الضـــفة الأخـــرى حملـــت خـــرائبي
هـــراء غريـــب لا أعيبـــه، ولا أنـــا مـــتى ســـوف تـــدري ؟ حـــين أنســـى غـــرائبي

أبدع البردوني في رسم صورة كاريكاتورية ساخرة بإبرازه درامية الأحداث وتدرجه في سرد حيثياتها؛ ففي هذا النص الدرامي البوليسي يبث الشاعر معاناة المثقف اليمني الذي تقفل في وجهه أبواب العلم والمعرفة من خلال المضايقة والمحاصرة المفروضة عليه من قبل السلطة الجائرة، فتتعقب حركاته، وتتحسس خطواته، وتسرف في مساءلته لدى خروجه ودخوله اليمن وكأنه جاسوس أو عميل لصالح أعدائها. وهذه الصورة الكاريكاتورية في رسم المشاهد المأساوية من ملاحقة واستفزازات ومضايقات تجرح إباء الشاعر وعزته، وتزيده جراحا على جراح، لأن المساءلات والملاحقات والمطاردات والحملات التشهيرية التي تأتي من ابن جلدتك تدمر كيانك، لأن الأصل أن تكون ضد من يمس بأمن الوطن ويسعى في خرابه، لا أن تكون في حق من تشرد وذاق مرارة الحرمان من أجل رفع رايته وحمل لوائه، ومما لا شك فيه أن هذا السلوك المقنّن من المفارقات العجيبة السائدة في الأوطان العربية التي أضحى يصدّق فيها الكاذب ويكذّب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخوّن فيها الصادق، وهذا فعلا (هراء غريب) كما وصفه الشاعر.

ويكمن الجانب الآخر من السخرية في هذه المشاهد الدرامية، في أجوبة هذا المسافر التي كانت غير تلك التي يريدها المحقق، كي يبعث لنا برسائل أخرى قد لا يتسع لها فضاء القصيدة العمودية في شكلها المعهود؛ إذ تحمل إجاباتها تساؤلات جديدة، وشكاوى لا تستوعبها القلوب المتحجرة المقفلة كقلب هذا المحقق المتحيز مغيّب الضمير، لأنه صنيعة السلطة المستبدة، وإحدى عيونها التي تسهر على ملاحقة الرجل وظله، وتحرص أن يكون الجميع تحت رحمتها، وخاضعا لرغباتها التي دائما ما تصب في مصلحة الآخر القابع خلف البحار.

خاتمة:

خلصنا في نهاية هذا المقال "آليات السخرية في شعر عبد الله البردوني" إلى جملة من القضايا نلخصها كالآتي:

تعددت تقنيات السخرية في النصوص الشعرية المنتقاة لعبد الله البردوني بتعدد الأغراض والأهداف، وقد تسنى لنا الوقوف عند أبرزها وهي أساليب المفارقة والتَكرار والتصوير الكاريكاتوري.

كانت هذه الأساليب _ في مجملها _ موظفة توظيفا مثيرا للإعجاب زادت المقاصد والدلالات قوة وكثافة. حيث أمكن لها تصوير سلبية الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في قالب هزلي ساخر.

جاءت هذه الأساليب في قالب سردي قصصي ساخر تارة، وفي بنية حوارية درامية تارة أخرى، وفي شكل ومضات صغيرة في حجمها، كبيرة في أهدافها ومراميها.

كان لأسلوب المفارقة نصيب الأسد في قصائد الشاعر اليمني " عبد الله البردّوني " فقد استغرق عناوين القصائد، وتغلغل في متونها، بل ذيّل كثيرا من نهاياتها.

دافع البردوني بأسلوبه الشعري الساخر المتميّز عن آرائه ومعتقداته، مجابها سلطة مستبدة جعل منها مادّة خصبة استحوذت على كثير من مواضيعه.

كانت السخرية عند البردوني _ بمختلف آلياتها_ تعبيرا عن رفض واقع سياسي واجتماعي واقتصادي وثقافي مزر، كان ضحيته الأول والأخير الشعب اليمني.

5. قائمة المراجع:

Alberes, R. (S.D). le comique et l'ironie. Paris, France: Hachette.

sareil , J. (1984). l'écture comique. PAris, France: Puf.

ابن الرومي. (2002). ديوان ابن الرومي (المجلد ج1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

ابن منظور. (2008). لسان العرب. بيروت، لبنان: دار الفكر.

أرسطو. (1986). فن الخطابة. (بدوي عبد الرحمان، المترجمون) بغداد، العراق: دار الشؤون العربة العامة.

بدوي طبانة. (1988). معجم البلاغة العربية. الرياض، جدة، المملكة العربية السعودية: دار المنارة، دار الرفاعي.

رائد عباس. (2016). فلسفة السخرية عند بيتر سلوتردايك. الجزائر العاصمة، الجزائر: منشورات الاختلاف.

شوقي ضيف. (د.ت). الفكاهة في مصر. القاهرة، مصر: دار المعارف.

عبد الله البردوني. (2009). الأعمال الشعرية 1-12 (المجلد مج1). صنعاء، اليمن: مكتبة الأرشاد.

عبد الله الكدالي. (2018). الهزل والسخرية من منظور فلسفات الأخلاق. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي للكتاب.

عز الدين علي السيد. (د.ت). التكرير بين المثير والتأثير. القاهرة، مصر: دار الطباعة المحمدية.

محمد بن عبد الله بن أحمد القرطبي. (2006). الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان (المجلد 19). بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.

محمد مرتضى الزبدي. (د.ت). تاج العروس (المجلد 3). (طبعة الكويت، المحرر)

نبيلة إبراهيم. (د.ت). فن القص (في النظرية والتطبيق). القاهرة، مصر: دار مكتبة غريب.

هنري برغسون. (د.ت). الضحك. (عبد الله الدايم ، و سامي الدروبي ، المترجمون) دمشق: دار اليقظة.

مسلم مالك بعير الأسدي. (2007). لغة الشعر عند أحمد مطر. رسالة ماجستير ، ص 208. بغداد، كلية التربية، قسم اللغة العربية، العراق: جامعة بابل.

السعيد بولنوار. (2019). تجليات المفارقة الساخرة في تجربة عمار لخوص الروائية _ القاهرة الصغيرة أنموذجا_ . مجلة منتدى الأستاذ، المجلد 15، 84.

حسين الجنيد، و ياسر الأطرش. (15 05, 2020). المجاني من شعر العرب. الحلقة 22 : عبد الله البردوني. (أسامة الأشقر، المحاور) تم الاسترداد من :**youtube**

https://www.youtube.com/watch?v=n88lRKwCJDg